قصة حياتـــي

بدأت أتسلّى منذ ذلك الوقت بكتابة قصة حياتي ، رغم أننـي لا أملـك المـؤهلات الأدبية لذلك، كنت أقول لنفسي "كل إنسان يملك المؤهلات اللغوية قادر أن يكتب في حياته قصة واحدة هي تجربته الشخصية"..

بت أكثر تمسكا بحقوقي الشرعية وبحقوق ابنتي، وأنا مهددة من أقـارب زوجـي بانتزاعها من يدي.. ماكان زوجي يذكر أخاه مشعل بكثير من الود.. لا تجمع بينهمـا أم واحدة، ولا يجمع بينهما ثقافة واحدة، ولا أخلاقية واحدة، ولا موقف من الحياة واحد.

كنت أقارن علاقة الإخوة الأشقاء بعلاقتنا في أسرتنا فأجد البون شاسعا.. الأم تجمع قلوب الإخوة حتى لو اختلف الرأي، وحتى لو مالوا مع الهوى، وحتى لو غاب أحدهم عن الآخر السنوات الطويلة دون تواصل بينهم.. لقد احتلّكريم مكانته في قلبي منذ عاد الـى لبنان، ورأيت في سلوكه تغيرا عما كان في شبابه من قلّة المسؤولية، ورأيـت طباعـه السمحة التي لم تفارقه، وتفانيه في العمل، وحبه الصادق لزوجته أسماء.. وهكـذا كـان موقفي من هشام الذي كان يغيظ والدي بقلّة احترامه لمبادئ أسرته وبدأ حياته ببهلوانيـة "الحلال على الشاطر" فلما استقرت أموره أصبح من أكثر الناس تمسكا بقـانون العمـل وشرف المعاملة، حتى أنه يعرض حياته اليوم للخطر، ليعيد الحقوق الى أصحابها، وهـو يقارع أعداء غير هينين.. مافيا حقيقية متسترة كرجال أعمال في عالم غريب ترتكب في الجرائم صبحا وعشية وفي وضح النهار، يطوفون أحياء نيويرك وأيديهم على الزنـاد.. سافرت زوجته وولداه اليه ولم يمروا بي ليودعوني.. لعلّهم فرحون جميعا أنهم سيكونون في بلد حضاري حر، دون أن يشعروا بالخطر الذي يتهددهم بسبب موقف مـن يلـوذون به..

أجلس وأطياف من أراهم على شاشة ذاكرتي، الأحياء منهم والأموات تطـلّ علـي وأنا مستغرقة في أوراقي.. فقدنا أمنا ونحن صغار ولكن ذكراهـا تـشدنا الواحـد الـى الآخر.. كان لنا والدي الأم والأب، وكم رأيت الدمع يترقرق في عينـي والـدي وهـو يذكرها.. وبالرغم من شعوره بالوحدة لم يتزوج ثانية، وحمل عبء تربيتنا وحده..

وتلح علي ذكرى زوجي وتنهمر الدموع من عيني.. شاهدت منـذ وقـت قريـب صوري في أحد أدراج مكتبه المقفلة.. لقد أحبني وكان كما قال ريمون "في حياة كل رجل

امرأة واحدة، يحبها كلّ الحب" لماذا لم أغفر له ما فعل وأسترده بحناني؟.. كـان أمـامي مثال والدي الذي لم يتزوج بعد وفاة أمي..كانت خطيئة زوجي أنه رجل لا يصبر علـى بعادي، ولعلي لو وازنت بين حاجاته ووفائي لوالدي أثناء مرضه لكانت كثير من الأمور التي فرقت بيننا تجد حلّها ما بيننا ولكنني كنت مغيظة لما بدا لي من ضعفه، وفـاتني أن طبيعة الرجال متباينة، وغريبة علينا نحن النساء اللواتي اعتدنا لجم عواطفنا وشـهواتنا، واكتفينا بدورنا الأمومي الذي يحتاج دائما الى التضحية بذواتنا ليعمـر الكـون ويرتقـي الإنسان..

ماكان علي أن أتصور بأن على زوجي أن يكون مثل أبي أو أخي عبد الـرحمن.. ولعلّ الإثنين ظلما نفسيهما أكثر مما ينبغي لهما، وشعرا بآلام الوحدة والحنين الـى مـن تعوضهما حنان الزوجة المعطاء ، بمن هي على غرارها، ولكن لم يساعدهما أحد عـى تجاوز محنتهما..

مثلما يعود النغم في القطعة الموسيقية في نهايته الى مبتداه.. هكذا كانت تعود الـي الذكريات.. أحس بيد ثلجية تقبض قلبي، ولا أصدق أن سفينة الموت رحلت بزوجي الى عالم الأبدية الى وادي الظلال! يحاورني في أحلامي كما كان يفعل وهو حي، ويسر الي هموم قلبه كما لم يكن يفعل وهو حي، وأستيقظ على فجر قاس وأنا بين اليقظة والنوم، أنه حدث في حياتي أنني فقدته، ولكن كان هذا مجرد كابوس، ويعيده المـوج الـي غريبـا ووسيما برجولة مهيبة كيوم تعارفنا لأول مرة، ويتأرجح قلبي بين مصدق ومكذب طاردا شبح الموت الى حين، وأسعد بمرآه يعتطف العباءة البيضاء على جسده العـاري وهـو يدمدم لي بكلمات العشق واللهفة، وأصحو لأتلمس الفراش الخـالي منـه والـدمع يبلـل وسادتي، وأجهش بالبكاء كطفلة صغيرة كسرت دميتها العزيزة، حين يخون الواقع الألـيم فرحي الذي يبرق لحظة لأغرق في ظلام العاصفة الحزين، ويدق صدري اللاهث بـين أضلعي كمنقار طائر غريب "رحل! رحل في أوج رجولته وعطائه دون كلمـة وداع".. ذهب الجسد تناثر أشلاء ومعه ذلك الطفل المسكين الذي لم يكبر ليعرف الحياة بخيرهـا وشرها..

لو كنت أعلم أن حياته ستكون قصيرة وتنتهي الى مثل هذا المصير غير المنطقـي وغير العادل لكنت غفرت كل ذنوبه وتغاضيت عن نقاط ضعفه، ودافعت عن حياتي معه

بدل أن تتملكني الكبرياء لأقمع كل عاطفة نحوه.. عرفت معه أياما حلوة، وكان الرجـل الوحيد في حياتي الذي عرفت معه معنى الحب.. كان رقيقا معي لم يـسئ الـي بكلمـة جارحة بينما كنت أكيل له في غضبي نقدا جارحا، وأحملـه مـسؤولية إفـساد حياتـه وحياتي.. قاطعته حتى لم يعد بيننا للصلح مكـان.. يتقـدم منـي خطـوة فـأنفر منـه خطوات..وها هو ذا يعود الي في أحلامي وهو أفضل مما كان أقيمه كما يستحق لا بروح الغضب..ان صورته الكبيرة المعلقة في مكتبه قبالتي تلومني بنظرة حزينة.. عشت جافية صعبة من أجل الحقيقة التي أبحث عنها ولا أجدها فيما يحيط بي من أحداث .. يفلت في الدنيا المفسدون والأشرار ولا يمسهم أحد بسوء وتصهر قبضتها القاسية البناة وتغتالهم يد الأقدار..

انتظرت طويلا أن يبهج هشام قلبي بأخبار تبعث شرارة الأمل في نفـسي، ولكـن القضية كلها كانت مغلّفة بالأسرار، ولا يجوز نقلها عبر الأثير أو الورق، وبقيـت فـي ظلام مما يجري هناك، بعيدة عن الناس لا يزورني الاّ كريم وأسماء، ومدرسة نورا التي تدربها على الكمنجة..

أستيقظ في منتصف الليل وأبقى مفتوحة العينين، ثم أمسك بقلمي وأستمر في قصتي التي لا أجد لها نهاية، وتتوالى الأيام.. سلسلة مترابطة الحلقات لا أعرف فيها يوما مميزا بل لم أعد أهتم بالأيام الاّ ان تذكرني الروزنامة أن اليوم عطلـة أو أن أسـماء وكـريم سيأتيان لزيارتي.. تتورم عيناي من البكاء وفرط السهاد وتقول لي نورا في الصباح:

-لماذا عيناك يا ماما محمرتين؟ فأقول لها:

-لدي حساسية في الجفنين بسبب غبار الطلع..

أخرج الى الحديقة وأسقيها بنفسي.. تنور فيها شجيرات اللوز، ولكن مـن زرعهـا بيديه لم يعد حيا ليراها! ما أقصر حياة الإنسان وما أتفه ما يركض وراءه من غايات، لا يتريث ليشاهد مطلع الشمس عند الشروق، ومغيبها عند المساء على شاطئ البحر وهـي ترتدي أثوابها كعروس يابانية.. ماعاد منظرها اليوم يبهجني كما كان فـي صـيدا وأنـا أتأملها من نافذتي من خلال أشجار البرتقال..

ما هذه الحياة التي تشغل الإنسان عن رؤية صفحة البحر المليئة بنجوم الكهـارب، والشجر يزهر في الربيع، والحدائق تعج بالبنفسج والورود.

مذ قدمت الى المدينة الصاخبة بالسكان والسيارات، فقدت متعة التوحد مع الطبيعة، أصغي الى البلابل تزقزق غير مرئية في أعالي الحور، وصمت الليالي المعطرة بزهـر الياسمين. لماذا أقف الليلة وحيدة في شرفتي تخترق عيناي نقاب الموت، ونجوم الـسماء عني بعيدة، والكون موحش لا قرار له؟ لماذا أبحث عن أهلي في قارات أربع حيـث لا يجدون الترحيب الجدير بهم، فهم غرباء حيثما حلّوا لاأرى منهم الاّصورة أم كلمة علـى الورق أو صوتا على التلفون؟ لماذا يكون قدري أن أعيش في قلب العالم أسمع نبـضاته الخافقة، وأعي نضاله المستميت في سبيل الحرية، وأرى مشهد الأكفان ينقب بها شهداءه، وأسمع عويل الثكالى على أبنائهن في رحيلهم كل ساعة الى الأبديـة؟ عـالمي ووطنـي الكبير والصغير هو عالم المقهورين بظلم لامثيل له في التاريخ، عالم تـستبد بـه قـوى وحشية ترضخه بعسكريتها المتطورة ومخابراتها ونظامها الربـوي لنهبـه وامتـصاص ثرواته، واستثمار جهد بنيه، والقضاء على تقدمه وحريته وطاقاته المبدعة..

أمامي تنفغر القبور عن أحشائها وتنثل منها الجماجم البشرية وبقايا حيـاة إنـسانية هدرت جورا وظلما.. لاأجد معنى لحضارة هذا العصر، ولا يمكنني أن أصدق أن مثـل هذا الظلم يمكن أن يستمر بالنسبة للإنسانية جمعاء! لن تحتمل بقاءها فـي سـياج تلـك العبودية المعاصرة التي تثير في كل مكان غضب الشعوب.. لايمكن الاّ أن ينفجر الظلـم من داخله ومن خارجه بعد أن يسبب للعالم كارثة نووية لا تبقي ولا تذر!..

آخذ دفتري وأذهب الى مكتبي بعد أن أوصل نورا الى مدرستها، انها تتكيف بشكل جيد في محيطها الجديد، وتثني عليها معلماتها، وتقول لي معلمة الموسيقى أنها تملك أذنا موسيقية مرهفة الإحساس وأنها تتقدم في استخدام آلتها بخطوات وثّابة..

لا أحد يزورني في مكتبي..يجب أن أشغل نفسي بعمل ما.. أطبع الصفحات التـي كتبتها في الليل على الكومبيوتر، وتعطيني الذكريات التي أسجلها مـن الواقـع اللبنـاني رهافة في استشفاف المستقبل، وتحدد الأحداث التي وقعت في لبنان الواقع الأليـم الـذي عاشه هذا البلد الصغير منقسما على نفسه، يدور بين القوى العالمية والقوميات المختلفـة، بين الأيدلوجيات شرقية وغربية، بين الطوائف الكبرى التي عرفتها أرض الرسالات وتلك التي انشقت عنها، وأدرك فداحة الثمن الذي يدفعه لبنان من حريته واسـتقلاليته وقدرتـه على اللحاق بركب الحضارة الحديثة..